الاستشراق ودوره في تحقيق المخطوطات

د. عابد بوهادي
جامعة ابن خلدون – تيارت –

يرى بعض الباحثين في الموضوع أن نشأة الاستشراق إنما بدأ منذ أن استصفى نابليون أموال الكنيسة في إيطاليا وأقفل منشآتها واستولى على المدرسة المارونية (1798) التي ظهرت بأمر البابا غريغوريوس الثالث عشر عام 1584. «ثم تأسست مطبعتها الشرقية (1653)، حيث اختار بعض طلابها محققين في المطبعة أو نواحة في حيشه، وانضموا إلى حملته.

ويرى الباحث اللبناني المعاصر نجيب العقيقي أنه اختيار منهجي يهدف إلى تأليف حلقة اتصال بين المشرق والمغرب وقد استمرد الفاتيكان وبعض ملوك أوروبا وأمرائها في جامعاتهم ومكتباتهم ومطابعهم، فعلموا اللغات الشرقية وجمعوا مخطوطاتها وفهرسوها وترجموا النفيس منها، فعاونوا بذلك على تعريف الشرق في الغرب، لغات وديانات وشرائع ثقافات وحضارات الخ..().

غير أن الدراسات النقدية للاستشراق؛ تؤكد في الكثير مما يتعلق بمجال تحقيق مخطوطات تراثنا العقلي أن ما قد يبدو تيراً ثقافيًا في عمل المستشرقين، هو في الواقع ظاهرة معكوسة كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي في حديثه عن تنمية شخصيته الفكرية حيث قال: « والجيل الذي أنا منه يدين له بذلك النصيب على الأقل في المحافظة على شخصيته الإسلامية. اكتشفت ، وأنا بين الخامسة عشر والعشرين من العمر، أمجاد الحضارة الإسلامية في ترجمة دوسلان لمقدمة ابن خلدون وفيما كتب دوزي عنها وأحمد رضا بعد الحرب العالمية الأولى. وإنني على إدراك تام لما أدين به لهذه المطالعات».()

فاعتراف المفكر الجزائري مالك بن نبي بقيمة الاستشراق، لم يمنعه من نقده بعد ذلك، عندما يريد توضيح قيمة الوعي التاريخي بمشكلاته، وذلك لأن الافتخار بأمجاد الماضي في زمن الاحتلال له ما يبرره في مقاومة الاستلاب الثقافي وبناء الشخصية، غير أنه يصبح بمثابة الأفيون أو المخدر لأنه يبعدنا عن حقائق العلم. يضيف قائلا: « فالأدب الذي ينشد عصر الأنوار للحضارة الإسلامية يؤدي هذين الدورين: أنه أتاح – في مرحلة معينة- الجواب اللائق للتحدي الثقافي الغربي وحفظ هكذا مع عوامل أخرى على الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى، صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب و لم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك».()

وفي ضوء هذا السياق النقدي تغلبت أطروحة أن الشرق والغرب لا يلتقيان على المسألة القائلة بوحدتهما؛ لأن تطور هذه المعرفة اعتمد على ما سُمِّي بالمركزية الغربية.

بالرغم من الاختلاف القائم بين الدارسين حول قيمة التنوير الثقافي للاستشراق، فإنه لا يغيب على أحد ما كان للاستشراق من دور فعال في مجال تحقيق المخطوطات في تراثنا العربي الإسلامي.

وقد يكون من الحكمة أن نراجع تاريخ هذا الدور، وبخاصة بعد نهضة علم الاستغراب الذي يعتبر العلم المضاد
وهو تاريخ تتميّز فيه اتجاهات مختلفة.

ولعلنا نجد في ذلك ما يبرر شرعية التساؤل عن عوامل التقدم العقلي في تصنيف الموضوع إلى نوعين على الأقل هما

أ – الاستشراق السياسي.

ب– الاستشراق العلمي.

أ – الاستشراق السياسي

قد يكون من الطبيعي أن يتساءل المهتم بموضوع الاستشراق عن الفائدة التي يجنيها أولئك الأجانب من تضخم جهودهم في دراسة القضايا الدينية والتراثية والتاريخية والاجتماعية للشرق؟

فإذا كان الغرض من الاستشراق هو مجرد طلب لدراسة ما في الشرق، فما الغاية من هذا الطلب؟ ولعلنا نجد في مقدمة كتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، الجواب بصورة واضحة ، خاصة إذا علمنا أن هاتين الهيئتين قصدتا بعملهما هذا « تصويب الأخطاء التي وقع فيها بعض المستشرقين الذين عالجوا موضوعات الفكر الإسلامي، ومقومات الحضارة العربية الإسلامية وتراثها الأدبي والعلمي والأخلاقي والسياسي في لغاتهم، فأساؤوا تقديمها لقرائهم، وحرّفوا مفاهيمها وشوهوا صورتها، عن قصد مبيّت حيناً، وعن جهل وسوء فهم أحايين أخرى».()

قد يقول قائل أن الأمر يتعلق بفئة من المستشرقين التي عملت في الدوائر السياسية، والتي لم تنظر إلى الاستشراق كنظام أكاديمي، بل كنظام « سياسي ومصطلح تاريخي يعنى بالشرق والإسلام والمعلومات المتوفرة عن الإسلام في الغرب، للتمكن من سياسة المسلمين والتحكم فيهم».()

وهذه المجموعة هي استمرار لتخريب هولاكو الذي جعل من المجلدات جسراً لعبور خيوله بين شاطئي دجلة، وما أتلفه الصليبيون في « طرابلس وحدها يقدر بثلاثة ملايين مجلد » بالإضافة إلى إحراق منظمة الجيش السري في الجزائر وشمال إفريقية، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية، رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة جوان 1962 لمكتبة الجزائر وإتلاف 600 ألف عنوان.

غير أن ما يراه بعض الدارسين مثل عبد الرحمن بدوي (1917 - 2002) يشككون في هذه الروايات. ويرون أن هذه الممارسات كانت سبب تعميم الأحكام على الاستشراق إلى درجة انعدام دراسة دقيقة ، تقوم على حصر أعمال المستشرقين، في مجال تحقيق التراث ونشره ... وإلى أن تتم هذه الدراسة، سيظل الحديث في هذا المجال (عمل المستشرقين) قائما على الحدس والتخمين، يعتمد على أحكام متسرعة، ويتأثر بأهواء مزاجية، وصدامات شخصية ومواقف نفسية، تجذبه من هنا وهناك ... ()

وعلى هذا الأساس كان موقف محمود قاسم (1913 - 1973) عندما فسر العلاقة الاستعمارية بالفكر الاستشراقي حيث رأى أن الاستعمار الفرنسي استطاع بجبروته وتعسفه أن يفرض لغته على الكثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقية، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية، رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة

من محاولات لفصم العقلية الجزائرية، عن طريق تمجيد وإشاعة الأكاذيب والأباطيل على نحو ما نراه في مؤلفات لويس (ماسينيون) ()، كما رأى أن ماسينيون ما كان يُعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه، حتى بعمق الهوة بين طائفتين توجد بالجزائر: طائفة تتمسك بالقديم، فتنساق، حسب ظنه، إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات هي صميم الإسلام، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذه الخرافات، بل من الإسلام كله ...()

وكأن هذا التقسيم للمجتمع الجزائري يبرِّئ سياسة التجهيل الاستعمارية، وينصف الاستيطان بجرائمه وقوانينه الجائرة، وقد كان لويس ماسينيون مستشارا بوزراة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الإفريقي، والراعي الروحي للجمعيات التبشرية الفرنسية في مصر وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى .()

فكيف تساهم مثل هذه الوظائف في تكوين جزائريين بثقافة حديثة؟ وهذا ما يدعونا إلى مراجعة النقد الموجه للاستشراق، خاصة عند أولئك الذين اعتمدوا آراء بعض المستشرقين من القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وقد يبدو هذا الموقف مسألة ضرورية في فهم الاستشراق وتبيان أغراضه وأهدافه.

وقد لا يكون هذا التفسير محل إجماع ، ولكنه يبيّن لنا على الأقل أن الاستشراق أنواع مختلفة باختلاف اللغات الأوروبية، فمنه الإنجليزي، والفرنسي، والألماني، والإسباني، والروسي، وغيرها، وبعض هذه الثقافات لم تكن في الدائرة الاستعمارية وانتصرت للرؤية العلمية التي وجدت حسب البعض مع المجادلة التعليمية بالهند ، حيث كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين، بينما كان معارضوهم يرغبون في أن تكون الإنجليزية هي أساس التعليم بالهند...()

ب- الاستشراق العلمي

مجال الاستشراق العلمي (الفكري) واسع يشمل جميع ميادين المعرفة، فهو ظاهرة تاريخية ارتبط وجودها بتطور العلوم الإنسانية والاجتماعية التي انتصرت لمبدأ التعاطف لفهم عادات وأخلاق وأفكار الشعوب التي تكون موضوع الدراسة، ولعل من شروط هذه المعرفة هو امتلاك أدوات التواصل اللغوي وأحياناً الممارسة العقائدية، إلاَّ أن تطور الترجمة ووسائل الاتصال ونقل المعلومات، وما آل إليه الدور الاستشراقي من تراكم كمي في ترجمة تراثنا ، جعله يتطور نحو الإسلاميات، لأن المهتمين بالفكر الشرقي، وبالتحديد بالحضارة العربية الإسلامية اليوم نادراً ما يعرفون اللغة العربية، وعلى هذا الأساس، تأتي الدعوة إلى الحوار مع الاستشراق المعاصر، لأن الرهان الحقيقي هو امتلاك المعرفة وليس تصنيف هؤلاء على أساس ديني باعتبار أن هذا المستشرق متعاطف مع الإسلام وذاك معادٍ له، ونحن نعلم مسبقاً أن تكوينه العلمي يهدف أول ما يهدف إلى خدمة مشروعه الثقافي، على نقيض ما تعمل به بعض مراكزنا ومعاهدنا في تنمية ثقافة الآخر ولغاته كحلقات تابعة وليس كوجود منفعل وفاعل لتطوير ذاتها العلمية. يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون:

إن الدراسات الاستشراقية اليوم معظمها دراسات جادة، وليس أمامها أي خيار آخر من أجل إثبات وجودها العلمي ومصداقيتها عند الباحث المتخصص أو القارئ إلا باتباعها منهجاً علميّاً دقيقاً يتوخى تقديم الفائدة والكشف بعيداً

عن الميول الدينية المسيحية أو اليهودية وتعصبها تجاه المجتمعات ذات الانتماء الديني المخالف، وإن الدراسات الاستشراقية الحديثة التي كتبها جيلي أو الجيل اللاحق من المتخصصين المعنيين بشؤون الشرق العربي الإسلامي لم تكن سوى دراسات تتوخى الكشف العلمي بصدد الموضوع الذي تتناوله. وإن كان هناك شيء » تنتقد « بسببه، فهو انطلاقاً من نظرة مسبقة أو رؤية غربية للعالم دون أن تكون هذه النظرة ذات تعصب أو مراهنة على حيادية البحث العلمي().

ومهما وجهت من تهم للاستشراق والمستشرقين، فلابد من إنصاف بعضهم، وخصوصاً أولئك الذين أدوا للتراث العربي والإسلامي خدمات جليلة سواء بأبحاثهم العلمية القيمة وتحقيقاتهم للتراث واكتشاف مصادره ووضع فهارس مهمة يستفيد منها القارئ العربي والغربي في أبحاثه ودراساته.

يقول إدوارد سعيد: » الاستشراق هو عبارة عن رد الفعل الغربي اتجاه الشرق. وهو أمر له جذوره في السياسة، ولكن مع ذلك يعتبر ظاهرة ثقافية ()

ويرى المستعرب الإسباني بيدرو مارتينيت مونتابيت أن **شخصية المستشرق هي شخصية مزدوجة**. وهذا الازدواج الوظائفي النفسي ما يزال حتى الآن، لأن المستشرق هو شخص يريد أن يعرف حضارة مختلفة، حضارة بعيدة عنه ولا شك أن هذه لها أصولها وخصوصيتها ومميزاتها. فعليه إذاً أن يتقمص هذه الحضارة، هذه الثقافة المختلفة البعيدة عنه ()

كان الأوروبيون على اتصال بالشرقيين منذ العصور القديمة التي شهدت ميلاد أولى العلاقات التجارية والسياسية بين أوربا والشرق. وبحكم قانون التطور ونمو الحاجات العلمية وظهور حركات التبشير، توثقت هذه العلاقات في العصور الوسطى أكثر من السابق. ومن ثم دخلت طوراً جديداً مع ظهور الرأسمالية في أوربا التي أصبحت بحاجة متزايدة إلى الشرق وخيراته، فغدت معرفة دقائق الأمور المتعلقة بشعوب هذه الرقعة الحساسة من العالم مهمة ضرورية فرضت ظهور علم قائم بذاته على صعيد القارة الأوربية عرف بالاستشراق الذي استهدف دراسة تاريخ شعوب الشرق واقتصادياتها ولغاتها وفنونها وعاداتها ودياناتها وفلسفتها وغير ذلك من المواضيع. فيكون الاستشراق بذلك وليداً شرعياً للنظام الرأسمالي واستجابة ضرورية لمتطلباته، وليس مجرد صدفة كما يعتقد البعض()وظهر بصفته حقلاً علمياً مستقلاً في القرنين 16 و17 م. والاستشراق بما هو علم إنساني هو بدوره امتداد لبقية العلوم الإنسانية التي ولدت في الغرب. إنه »نحن« في أوضاع تاريخية، وصور اجتماعية وممارسات حياتية لدى »الآخر« الذي يعبر عن وجودنا بلغة هي شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والتاريخية، هو وجود ليس كما نبتغي — ربما — أو يمثل صورة مغايرة لتصوراتنا، لطريقة تفكيرنا في الوجود، لطبيعة انفعالاتنا.

إنه »الآخر« الذي يهتم بأمرنا، بموضوع يشغلنا، يعري حقيقتنا، يكشف أوراقنا، يستنبط أسرارنا التي نحب إبقاءها مطمورة، لأنها تشي بضعفنا، بخواء أساليبنا في الحياة، محدداً حدود لغتنا في التفكير، حدود قاماتنا الحضارية، كيفية ممارسة حواسنا لوظائفها، إنه »الآخر« الذي يصحح مسارنا دون أن ندري، أو ندري ذلك عند التمعن()ولهذا لا نستطيع أن نقيم ستاراً حديدياً بيننا وبين هذا »الآخر« (المستشرقون). فلا مفر إذن من أن نباريهم في ميدان هو

أحص الميادين بنا، لأنه من صميم ثقافتنا، حتى نعود سادته ومعلميه. فإن لم نفعل، فلن يكون أمامنا إلا واحدة من اثنين: إما أن ننعزل ونتحجر كسائر الحضارات التي عجزت عن مواجهة التحديات الجديدة بالإبداع المستمر، وإما أن نمتص ونذوب. فلننظر إلى مقدار ما نترجمه من أبحاث المستشرقين، ومقدار ما يترجمه المستشرقون من أبحاثنا... ولننظر كم من الكتب والمقالات حتى لصغار المستشرقين، ترجم إلى اللغة العربية... لنتعرف بأن أبحاثنا ما زالت بوجه عام دون أبحاثهم في القيمة العلمية()

منهج الاستشراق

لا شك أن المنهجية الاستشراقية تنطلق في نظرها إلى الشرق من اعتبار سياسي بالأساس، مفاده أن المستشرق يحاكم منطق الشرق بكل ما يحمله من موروث، ومن ثم يبدأ إعادة إنتاجه وصياغته في ضوء المنهجية الغربية في الرؤية إلى الشرق، ومن زاوية خارجية تجعل أسرار الشرق وتبعاته واضحة للغرب ومن أجله()

والمستشرق هو المراقب الموضوعي، لأنه يرى دون أن يكون شرقياً، وإن كان بفضل الكتب، وكتب المستشرقين الآخرين بشكل خاص، بما هي مادة »مراقبة« على الأحداث التي تزعج موضوعيته. فالمستشرقون يكتبون للأوربيين ما يريدون قراءته من ناحية، وما يحتاجه الشرقيون لفهم أنفسهم ومعرفة ذواتهم، فيصبح وجود المستشرقين شرعياً ومبرراً في عملية إحلال صوت المستشرق مكان صوت الشرقي. هذا هو لب عملية الاستشراق: إقصاء الشرقي عن المسرح الذي يتم فيه تمثيله؛ فلا صوت له إلا الذي أريد له ()

ويرى الدكتور إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" أن الاستشراق ليس مجرد مذهب إيجابي حول الشرق يوجد في وقت واحد محدد في الغرب، بل هو كذلك تقليد جامعي ذو تأثير (حين يشير المرء إلى مختص جامعي يدعى مستشرقاً)؛ كما أنه إقليم للاهتمام يحدده الرحالة، والمشروعات التجارية، والحكومات، والحملات العسكرية، وقراء الروايات ومسارد المغامرات الغريبة المدهشة، والمؤرخون الطبيعيون، والحجاج الذين يمثل الشرق لهم نمطاً مخصصاً من المعرفة حول أماكن وشعوب وحضارات معينة.

وقد أصبحت العبارات الجاهزة المتعلقة بالشرق كثيرة الحدوث، وتجذرت هذه العبارات بقوة في الإنشاء الأوربي. () لقد حيكت صورة الشرق والإسلام بوجه خاص في ذهن الرجل الأوربي من خيوط الجهل والتعصب والتجني، حتى حفل التراث الأوربي بسوء فهم الشرق وسوء تصويره، ولم يفطن رواده إلى أن البشرية واحدة، وأن للحضارات والأديان أسساً ومثلاً واحدة، وأن القلوب واحدة مهما تعددت واختلفت الألسنة والألبسة والألوان والمعتقدات()وبسبب سوء النية في استخدام مصطلح الاستشراق بسبب ألوان التحامل التي سادت استخدامه، أصبحت الإشارة إليه مثيرة للمشاعر، مستفزة لقوى العقل لدى الكثير من المهتمين به، بل أصبح الاستشراق بسبب سوء استخدامه »بعبعاً« مخيفاً لدى هؤلاء.

ولهذا يتم تحديد الاستشراق مباشرة حين يكون هناك تحديد لأصوله في مقابلة مع مستشرق ما. وليس هناك مستشرق لا تنتابه مشاعر خاصة، حين يبدأ في الحديث عن الاستشراق، وذلك نتيجة البلبلة وعملية خلط الأوراق التي تمت باسمه وداخل فضائه بعضها مع بعض. وقد حاول العديد من المستشرقين التهرب من هذه الصفة()

ويرى الدكتور محمد أركون في تقييمه لثقافة المستشرق، أن المستشرقين الذين يكتبون لا يستطيعون الإفلات من التضامن مع الثقافة التي يكتبون فيها والتي كبروا في ظلها، وهي الثقافة العربية()

وعلى العموم، فقد انصبت اهتمامات المستشرقين على دراسة الإسلام بشكل جاد وعميق ودرسوه من عدة زوايا وجوانب، بل إنهم أوجدوا المختصين في كل جانب من جوانبه، ومن ثم انطلقوا حوله بأساسيات ثابتة حددت أطر تفكيرهم. ولابد من الإشارة هنا إلى أعمال بعض المستشرقين الكبار الذين ساهموا مساهمة فعالة في خدمة التراث العربي الإسلامي، فأخرجوه من بطون خزانات المخطوطات المنسية للمحافظة على قسم منه ولإحيائه ونشره بين الناس ساهم ويساهم في إغناء ثقافة البلدان التي يعيش هؤلاء المستشرقون بين ظهرانيها، علماً بأن ما أنجزه هؤلاء من كشف وأبحاث عن ديننا وتراثنا في الفترة بين 1800 و1950 م يقدَّر بنحو ستين ألف كتاب (60.000)، أضف إلى ذلك ما أنجزوه منذ سنة 1950 إلى اليوم!! إذ عرفت حركة الاستشراق تطوراً، وذلك تمشياً مع طبيعة المرحلة والوضع الجديد الذي تشهده الأمة العربية الإسلامية. واختلف غرب القرن الثامن عشر والتاسع عشر عن غرب النصف الثاني من القرن العشرين اختلافاً شديداً، وتغير الرأي الذي كان سائداً بين المستشرقين في القرنين الماضيين والذي كان قائماً على العصبية وإنكار فضل العرب ودورهم في الحضارة الإنسانية، فقد عصف بهم التعصب الأعمى إلا أنه لا يجب إنكار ما قام به بعضهم الآخر من مجهود جبار في خدمة العرب حضارة وثقافة وفكراً، ومسحوا غبار الإهمال والنسيان عن كثير من آثار التراث العربي الإسلامي.

المستشرقون والتراث الإسلامي

ليس الهدف هنا هو الدفاع عن المستشرقين، وإنما الغاية هي قبل كل شيء إبراز الحقيقة والوقوف على بعض الجوانب الإيجابية في أعمال هؤلاء، وينبه الدكتور **حسين مؤنس** إلى حقيقة هامة، وهي أنه منذ زمن بعيد نجد نقراً ممن يقرؤون الكتب الغربية في لغاتها يصرون على أن كل ما كتبه المستشرقون عنا تحامل وعصبية حتى ثبت في أذهان بعض قرائهم أن كل مستشرق عدو، وهذه فكرة خاطئة. فإن الكثيرين جدّاً من المستشرقين منصفون، وقد قالوا الحق كما تصوروه. حقيقة، هناك ناس متحاملون؛ ولكن إلى جانب هؤلاء، هناك علماء أجلاء لا يستطيع الإنسان إلا تقديرهم واحترامهم. وإذا وجد المسلم في كتاباتهم ما لا يرضيه، فليس من الضروري أن يكون ذلك صادراً عن سوء نية، بل هذا هو الحق كما رآه. وما دام قد صدر في ما يكتبه عن إخلاص، فنحن نحترم رأيه وإن لم يُرْضِنَا. ولا ننسى كذلك أن أولئك المستشرقين خدموا لغتنا وعلومنا خدمات جليلة. ويكفي أننا تعلمنا منهم تحقيق النصوص. ومهما كان في آرائهم مما لا يرضينا، فهي آراء لا تنقص من قيمة الخدمة التي قاموا ويقومون بها. ويذكر حسين **مؤنس** طائفة من المؤلفات التي لا يجوز التقليل من شأنها، منها كتاب آسين بلاثيوس عن ابن حزم وكتابه في "الأصول العربية للكوميديا الإلهية لدانتي"، و"قاموس العربية المعاصرة" لهانزفير، ودراسات شارل بيلا عن الجاحظ، وما نشره من نصوصه، وكتاب مونتجمري واط عن سيرة الرسول (ص)، ومجموعة من الدراسات عن تاريخ الإسلام وحضارته ومؤلفات ليفي بروفنسال عن التاريخ الأندلسي، وكتاب يوسف شاخت عن أصول التشريع الإسلامي وغيرها من المؤلفات الكثيرة التي اهتمت بالعرب والإسلام()

أما الدكتور عبد الرحمن بدوي، فيرى أن الاستشراق أدى مهمة في غاية الأهمية ... للدراسات الإسلامية والعربية، وخصوصاً في فترة كان العرب فيها في غاية الضعف والجهل بحضارتهم وعلمائهم وإنتاجهم القديم. واستمرت هذه الحركة تقريباً حتى قيام الحرب العالمية الثانية، ثم بدأت حركات في العالم العربي - الإسلامي توحي أصحابها القيام بنفس المهمة التي حمل عبئها من قبل المستشرقين. ولما كانوا قد وجدوا أن بعض هؤلاء المستشرقين قد طغت عليهم منازع قومية أو دينية أفسدت أحكامهم، فقد كان من الضروري أن يقوم بعض العرب بالتصدي لهذه الأحكام. وهذا ما فعلته أنا مثلاً في ما يتعلق بالقرآن وسيرة النبي (ص)، في كتابي بالفرنسية "دفاع عن القرآن ضد منتقديه" سنة 1989 م و"دفاع عن النبي (ص)، ضد المفترين عليه" سنة 1990 م. هذا ضروري، خصوصاً وأن المنصدين للأمور الدينية في البلاد الإسلامية عاجزون كل العجز عن القيام بهذه المهمة لنقص ثقافتهم، وقصر في عقولهم وجهلهم باللغات الأساسية التي كتبت بها الدراسات الاستشراقية الرئيسة()

وعلى العموم، فإن الاستشراق ليس شراً كله كما يعتقد البعض، وليس خيراً كله، لأن جزءاً كبيراً منه تم إنجازه في الفترة التاريخية التي جثم فيها الاستعمار الغربي على صدورنا. ولكن الاستشراق ـــ بخيره وشره ـــ معروض أمام عقولنا وأبصارنا، وتبقى علينا مسؤولية استخلاص الجيد والاستفادة منه وطرح الرديء والتخلص منه. ويرى الدكتور محمود حمدي زقزوق أن الاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي: فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين.

والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد. ولهذا، فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة. إننا لو فعلنا ذلك، لكنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال. ولهذا ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول.

وهكذا نجد أن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بإلحاح ويتطلب منا وقفة تأملية جادة لبحثه ودراسة أبعاده وتأثيراته في الإسلام والمسلمين. وهناك من غير شك بعض الجهود العلمية القيمة في هذا الصدد من جانب بعض المسلمين، وهي جهود لا يجوز التقليل من شأنها أو تجاهلها()

ويرد المستشرق الفرنسي ألدري ميكيل على الانتقادات التي توجه إلى الاستشراق، فيقول:« أقول بكل نزاهة وفي إطار ما أكنه من ود وحب وصداقة للعرب: إنكم لا يمكن أن تستمروا في إعادة القول - خلال عشرين سنة أو خمسين سنة القادمة - إن كل ما ينتج من إنتاج في عالم غير عالمكم هو إنتاج سيء دون أن تقترحوا أنتم مناهج جديدة وبدائل جديدة ... تستطيع أن تثبت على أرض الواقع، إن كل ما هو موجود من مدارس وأبحاث وإنتاج في الغرب غير ملائم وسيء، إن النقد الصادر عن المثقفين العرب له ما يبرره وبدون جدال، وقائم على خلفيات فكرية وتوجهات قومية، ولكن أي نقد لا يمكن أن يثبت ويصمد إلا إذا كان صمودهم يعتمد على الإنتاج على الخلق

والابتكار، وهذا هو الإطار الذي ينبغي أن نحدد فيه سيرنا وتصوراتنا ومفاهيمنا»()

ويجدر بنا هنا أن ننوه بمجهودات بعض المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية أمثال: آسين بلاثيوس وجاك بيرك ومكسيم رودنسون وأندري ميكيل وغارسيا غوميث وبوكاي وجارودي وبروكلمان وغوستاف لوبون وتوماس أرنولد - وما أطول حلقات السلسلة! يشهدون للإسلام بمطابقته للعلم وللمسلمين بملكاتهم الفكرية والعلمية ومساهمتهم البناءة في تشييد الحضارة الإنسانية.